فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة وماهذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانسانى ذلك النوع على ما به وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف افراده وان لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه وان يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما ألهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان اما حيواناً آخر كالنحل والنمل اوملكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الارض » اه

آثار علمية

العشق وحرية العرب

دخل يزيد بن معاوية على أبيه أيام حكمه مستأذناً بقتل ابى دهبل وهب بن زمعة الجُمَحيّ لانه اكثر التغزل فى اخته عاتكة واشتهر بعشقها وسارت بأشعاره الركبان وتغنى بها الناس فقال معاوية وماذا قال ؟ فأنشده يزيد ابياتاً من قصيدة ابى دهبل النونية وهي :

طال ليلى وبتُّ كالمجنون ... ومللتُ الثواء فى جيرون

وأطلت المُقام بالشام حتى ... ظن أهلى مرجمات الظنون

فبكت خشيت التفرق جُمْل ... كبكاء القرين إثر القرين

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّ ... اص ميزت من جوهر مكنون
واذا ما نسبتها لم تجدها ... في سناء من المكارم دون

فلما انشد هذا البيت وما قبله قال له معاوية في اثر كل واحد منهما هي كذلك يابني ولقد صدق. فلما انشد :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ ... ـراء تمشي في مرمر مسنون

قال معاوية : كذب في هذه يابني . وبعد البيت :

قبة من مراجل ضربوها ... عند برد الشتاء في قيطون
عن يساري اذا دخلت من البا ... ب وان كنت خارجاً عن يميني
ولقد قلت اذ تطاول سقمي ... وتقلبت ليلتي في فنون
ليت شعري أمن هوى طار نومي ... ام برأني البارى قصير الجفون

وهذا البيت من الحسن بالمكان الذي تراه

وعزم معاوية ان يكلم ابادهبل في الامر فتربص به حلمه حتى اذا كان في يوم جمعة دخل عليه الناس وفيهم ابو دهبل فقال معاوية لحاجبه اذا اراد ابو دهبل الخروج فامنعه وارددّه اليّ وجعل الناس يسلمون وينصرفون فقام ابو دهبل ينصرف فناداه معاوية : يا أبادهبل اليّ فلما دنا اليه اجلسه حتى خلا به ثم قال له ما كنت ظننت ان في قريش اشعر منك حيث تقول : « ولقد قلت اذ تطاول سقمي » الى آخر البيتين — غير انك قلت : « وهي زهراء » — البيت والذي بعده — والله ان فتاة أبوها معاوية وجدها ابو سفيان وجدتها هند بنت عتبة لكما ذكرت وأيّ شيء زدت في قدرها ولقد أسأت في قولك : « ثم خاصرتها » — البيت فقال والله يا أمير المؤمنين ما قلت هذا وانما قيل على لساني. فقال له معاوية : أما

من جهتي فلا خوف عليك لانني أعلم صيانة ابنتي نفسها واعرف ان فتيان الشعراء يتركون ان يقولوا النسيب في كل من جاز ان يقولوه فيه وكل من لم يجز وإنما اكره لك جوار يزيد واخاف عليك وثباته فان له سورة الشباب وأنفة الملوك . فحذر ابو دهبل وخرج الى مكة ويقال ان معاوية اراد ذلك لتنقضي المقالة عن ابنته

اما سبب عشق ابي دهبل لعاتكة فقد روي فيه انها لما حجت نزلت من مكة بذي طوى فبينما هي ذات يوم جالسة في وقت الهاجرة وقد اشتد الحر وانقطع الطريق اسرت جواريها فرفعن الستر وهي جالسة في مجلسها وعليها شفوف لها (ثياب رقيقة) تنظر الى الطريق فمر ابو دهبل فوقف طويلاً ينظر اليها ويمتع نظره بمحاسنها وهي غافلة عنه فلما فطنت له شتمته واسرت بارخاء الستر فقال :

اني دعاني الحين فاقتادني حتى رأيت الظبي بالباب
يا حسنه اذا سبني مدبراً مستتراً عني بجلباب
سبحان من وقتها حسرة صبّت على القلب بأوصاب
يذود عني ان تطلبتها ابٌ لها ليس بوهاب
احلّها قصراً منيع الذرى يحمى بأبواب وحجاب

ثم انشد ابو دهبل هذه الابيات بعض اخوانه فشاعت بمكة وتناشدها الناس وغنى بها المغنون وسمعتها عاتكة انشاداً وغناء فضحكت واعجبتها وبعثت اليه بكسوة وجرت الرسل بينهما فلما صدرت عن مكة خرج معها الى الشام فكان ينزل قريباً منها وكانت تتعاهده بالبر واللطف حتى وردت دمشق وورد معها فانقطعت عن لقائه في بيت الامارة والملك

ولم يعد يراها فمرض مرضاً طويلاً وانشد القصيدة النونية المذكورة آنفاً

ولما عاد الى مكة خوفاً من يزيد كان يكاتب عاتكة . وبينما معاوية ذات يوم في مجلسه اذ جاءه خصي له فقال يا امير المؤمنين لقد سقط الى عاتكة اليوم كتاب فلما قرأته بكت ثم اخذته فوضعته تحت مصلاها وما وما زالت خائرة النفس منذ اليوم فقال له اذهب فالطف بها حتى تحتال على اخذ الكتاب فقعل الخصي واتى بالكتاب واذا فيه :

أعاتك هلاً اذا بخلت فلا ترى ... لذي صبوة زلفى اليك ولا يُرقى
رددت فؤاداً قد تولى به الهوى ... وسكّنتِ عيناً لا تملُّ ولا ترقا
ولكن خلست القلب بالوعد والمنى ... ولم أرَ يوماً منك جوداً ولا صدقاً
أتسمين أيامي بربعك مدنفاً ... صريعاً بأرض الشام ذا جسد ملقى
وليس صديق يرتضى لوصية ... وادعو لدائي بالشراب فما اسقى
واكبر همي ان ارى لك مرسلاً ... فطول نهاري جالس ارقب الطرقا
فواكبدي اذ ليس لي منك مجلس ... فأشكو الذي بي من هواك وما ألقى
رأيتك تزدادين للصب غلظة ... ويزداد قلبي كل يوم لكم عشقا

فلما قرأه معاوية بعث الى ابنه يزيد فأتى ووجده مطرقاً فقال له ما هذا الأمر ؟ فقال امرٌ اقلقني وامضني وما ادري ما اعمل في شأنه قال وما هو ؟ قال هذا الفاسق ابو دهبل كتب بهذه الأبيات الى اختك عاتكة فلم تزل باكية فما ترى فيه ؟ قال الامر هين عبد من عبيدك يكمن له في ازقة مكة فيريحنا منه . فقال معاوية : أفٍّ لك والله ان تقتل رجلاً من قريش هذا حاله صدق الناس قوله وجعلونا احدوثة ابداً . فقال يزيد يا أمير المؤمنين انه قال قصيدة أخرى تناشدها اهل مكة وسارت حتى

بلغتني واوجعتني وحملتني على ما اشرت به فقال ما هي فانشد

ألا لاتقل مهلاً فقد ذهب المهل ... وما كان من يلحى محباً له عقل
لقد كان في حولين حالا ولم ازر ... هواي وان خوفت عن حبها شغل
حمى الملك الجبار عني لقاءها ... فمن دونها تخشى المتالف والقتل
فلا خير في حب يخاف وباله ... ولا في حبيب لا يكون له وصل
فواكبدي اني اشتهرت بحبها ... ولم يك فيما بيننا ساعة بذل
ويا عجباً اني اكاتم حبها ... وقد شاع حتى قطعت دونها السبل

فقال معاوية : قد والله رفعت عني لانى ارى انه يشكو عدم الوصل فالحطب فيه يسير قم عني . فقام يزيد وحج معاوية في تلك السنة ولما انقضت ايام الحج كتاب اسماء وجوه قريش واشرافهم وشعرائهم وكتب فيهم اسم ابي دهبل ثم دعا بهم ففرق الصلات الجزيلة فلما قبض ابو دهبل صلته وقام ينصرف دعا به معاوية فرجع اليه فقال له يا ابا دهبل مالي رأيت يزيد ساخطاً عليك في قواريض تأتيه عنك وشعر لا تزال تنطق به وانفذته الى اخصامنا وموالينا فطفق ابو دهبل يعتذر ويحلف انه مكذوب عليه فقال له معاوية لا بأس عليك وما يضرك ذلك عندنا فهل تأهلت قال لا . قال فأي بنات عمك احب اليك قال فلانة قال زوجتكها واصدقتها الفي دينار وامرت لك بألف دينار اخرى . فلما قبضها قال : ان رأى امير المؤمنين ان يعفو لي عما مضى فان نطقت ببيت في معنى ما سبق مني فقد ابحت به دمي وفلانة التي زوجتنيها طالق البتة فسر معاوية بذلك وضمن له رضى يزيد عنه ووعده بادرار ماوصله به في كل سنة وانصرف الى دمشق . قالوا ولم يحج معاوية في تلك السنة الا لاجل ذلك

(المنار) فى القصة فوائد لمن يتأمل ويستفيد (منها) حرية العرب وتساهلهم فى العشق وغيره مع اولادهم وغير اولادهم وفى لوازمه ما لم يتهلك المرض وتلمس العفة وتبتذل الصيانة (على ان العشق والعفة لا ينفكان فى قرن كما سنبينه) الم تر الى معاوية كيف اجاب يزيد حين قال له ان ابا دهبل يقول فى ابنتك

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوّ اص ميزت من جوهر مكنون

بقوله : لقد صدق يا بنى انها لكذلك ثم لما قال له انه قال « ثم خاصرتها » البيت قال لقد كذب . الم تر انه لم يعاتب ابنته ولم ينصحها لانه يعلم ان العشق طور من اطوار النفس يفري به المعذل والتثريب ، ولا ينجع فيه الوعظ والتأديب ، ألم تر انه قال لابى دهبل « أما من جهتى فلا خوف عليك لانى اعلم صيانة ابنتى نفسها واعرف ان فتيان الشعراء يتركون ان يقولوا النسيب » الخ

(ومنها) الطريقة المثلى فى تربية الفتيان والفتيات فى طور العشق والحب . اذا علم الجاهل الاخرق ان ولده عشق وساءه ذلك وخشي منبته يبادر الى اطفاء لوعته باللوم والتعنيف ، والعذل والتوبيخ ، وذم المحبوب ، وانتحال المثالب والعيوب ، وماهذا اللوم الا عين الاغراء ، وماذلك الاطفاء الا إضرام وإذكاء ،

كالذى طأطأ الشهاب ليطفى وهو أدنى له الى التضريم

والعليم الحليم يبادر الى قطع الصلات ، وابطال المعاملات ، بخفيّ الحيل ، ولطائف الحيل ، كما فعل معاوية فى اخراج أبى دهبل من الشام أولاً ثم فى تزويجه واكرامه بحيث ألجأه الى ان يعطى العهد من نفسه على ترك التشبيب

بعاتكة ويؤكد ذلك بإبانة زوجه واباحة دمه من غير ان تعلم عاتكة بذلك (ومنها) الفرق بين حلم معاويه وسفه يزيد وميله الى الظلم وسفك الدم وكيف صده ابوه عن اغتيال ابي دهبل بقوله ان في ذلك اثباتاً للتهمة واشتهاراً بالفضيحة ولم يأته من قبل الدين وحرمة الدماء المعصومة. والظاهر انه كان يعلم ان ما قاله له هو الذي يؤثر فيه

(ومنها) الحرية العامة. عند العرب يومئذ فقد كانوا يتغنون بشعر يشبب فيه ببنت أمير المؤمنين من غير مؤاخذة ولا نكير ولا توقع مؤاخذة ولا خوف عقوبة

ومن وجوه الاعتبار الفرق بين عظمة الملوك وتجبرهم اليوم وبساطتهم يومئذ

العشق والعفة

العشق كما قلنا حليف العفة وقرينها وحب الفساد المقلوب لا يسمى عشقاً. وقد كان ابو دهبل عفيفاً نزيهاً وعاتكة أعف وانزه. روى انه خرج يريد الغزو فلما كان بجيرون جاءته امرأة فاعطته كتاباً فقالت له اقرأ لي هذا الكتاب فقرأه لها ثم ذهبت فدخلت قصراً ثم خرجت اليه فقالت لو تبلغت القصر فقرأت الكتاب على امرأة كان لك فيه أجر ان شاء الله فانه من غائب لها يعنيها امره فبلغ معها القصر فلما دخلا اذا فيه جوار كثيرة فأغلقن عليه القصر واذا فيه امرأة وضيئة فراودته عن نفسه فأبى فأمرت به فحبس في بيت من القصر وكان يطعم ويسقى قليلا حتى ضعف وكاد يموت ثم دعته الى نفسها فقال لا يكون ذلك ابداً ولكني اتزوجك